مناسبة اصوات الحيوان لمسمياتها في كتاب الحيوان للجاحظ انموذجاً

م .د. نبأ عبد الامير عبد
جامعة القادسية / كلية العلوم
nabaa.alameer@qu.edu.iq

ملخص البحث

ضم التراث العربي عدداً لا بأس به من العلماء الذين قدموا مصنفات درست الحيوان؛ كدراساتُ الاصمعي، والسجستاني، وابي عبيدة ، وابن قتيبة، وابي جعفر البغدادي، وغيرهم ، ولكنها في الغالب تقتصر في دراستها على حيوان معين .

إلَّا أنَّ الجاحظ تمكن من تقديم دراسة مفصلة عن عدد من الحيوانات مابين دفتي كتاب واحد فكانت دراسته قائمة على الملاحظ المباشرة والتجربة، ولعل من أهم الملاحظ التي سجلها الجاحظ ما ذكره عن الفرق بين لغة الإنسان الذي لقبه بالفصيح والناطق؛ لأن لغة الإنسان عبارة عن أصوات لها معنى مفهوم، أمَّا الحيوان فما ينطق به عبارة عن أصوات ذات معنى غير مفهوم بالنسبة للإنسان .

ولاحظ الجاحظ أن للحيوان لغة متكاملة وإنْ كانت غير مفهومة بالنسبة للإنسان إلَّا أنَّها مفهومة وواضحة المعاني بالنسبة للحيوان مع أقرانه، فأصوات الحيوان تختلف من موقف إلى آخر، ومن الاستعانة بمخارج وصفات الأصوات عند الإنسان وما تدل عليه من ضعف وقوة ، يمكن الحصول على تفسير لبعض الخلافات الدلالية بين اللغويين كخلاف العلماء في دلالة الفحيح والكشيش، إذ وجدت أن الفحيح هو صوت الأفعى والكشيش صوت جلدها .

وقد تعبر أصوات الحيوان عن شكله أو مشيته كما لحظ ذلك مع القطا، فهي ثقيلة في مشيتها، وأنَّ صوتي القاف والطاء ثقيلان في نطقهما على المتكلم ايضاً .

لم تكن محاكاة العرب لأصوات الحيوان بشكل مباشر وإنَّما كانت تنتخب أصواتاً معينةً وتضيف إليها أصواتاً مناسبة لها من حيث الدلالة الصوتية كصوت الغراب الذي سمع منه (غيق) وأضيف إليه صوت النون فاصبح (نغق) .

الكلمات المفتاحية : دراسات انسانية، لغة عربية

Abstract

The bigeye able to provide a detailed study of the number of animals between the covers of one book, a study based on direct observed and experience, and perhaps one of the most noticeable recorded bigeye what was said about the difference between the man who called Balvsih and spokesman of the language; because human language is a relevant Vote the meaning of the concept, either animal. What utter a meaningful voices incomprehensible to humans.

It noted that the animal bigeye integrated the language that was incomprehensible to humans, but it is understandable and clear meanings for the animal with his peers, sounds of animals vary from one position to another.

It is through the use of exits recipes votes in humans and is signified by the weakness and strength, could be an explanation for some of the differences between the linguists Remember Kkhalav scientists indication hiss and Alkachih, I found that the hiss is the voice of the snake and Alkachih sound of her skin.

May reflect the voices of the animal for its shape or gait as meat with Qatta, they are heavy in gait, and the voice gathered Heavy Tae in the pronunciation of the speaker.

Arabs were not simulate the voices of the animal directly, but was elected by certain sounds and adds them suitable voices its significance in terms of sound like the voice of the crow who heard him (Giq) was added to the sound, bringing to Noon (Ngq).

Keyword: dirasat iinsania. Lugha

المقدمة

الأصوات المنطوقة هي أساس اللغة ؛ لأنها الوسيلة الأساسية للتواصل والتفاهم بين البشر وكذلك الحيوان، وقد عني الجاحظ بأصوات اللغة عناية يمكن أنْ نلمس بلحاظها في صفحات كتبه ككتاب الحيوان، والبيان والتبيين، وغيرهما .

إذ ضمت مؤلفات الجاحظ إشاراتٍ صوتية كحديثه عن عيوب النطق عند الانسان وعن مخارج الأصوات، وفضلاً على ذلك كان للجاحظ عناية ملحوظة بأصوات الحيوان ولاسيما في كتاب الحيوان، ولأهمية ما قدمه الجاحظ عمدت لإظهار ما قدمه الجاحظ من جهد في أصوات الحيوان ودراستها دراسة صوتية دلالية .

وبدأ البحث بالتعريف بشكلٍ مختصرٍ بالجاحظ ثم الحديث عن كتاب الحيوان وما قيل عنه، مع بيان نظرة الجاحظ للفرق بين لغة الإنسان والحيوان وما يطلق على كل منهما ، وعرجت على ما سجله الجاحظ من ملاحظ على أصوات الحيوان، وقمت بتقديم دراسةٍ دلاليةٍ لمجموعةٍ من أصوات الحيوان مع التحليل الصوتي المناسب لها كصوت : الفحيح، والكشيش، والقطا، والنعيق، والشحيج، والهديل، والهدير، ثم خاتمة تضمنت أهم نتائج البحث وفهرس بالمصادر والمراجع التي اعتمدت عليها .

الجاحظ

الجاحظ هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي ،[١] ولد في البصرة سنة (١٥٠ هـ) ،[٢] وسمي الجاحظ بهذا الاسم؛ لأنَّ عينيه كانتا جاحظتين .[٣] اشتهر الجاحظ بعلمه وأدبه فكان كاتب ولغوي بارع، ترك إرث لغوي في أغلب الفنون والعلوم ولاسيما علوم اللغة من صوت، وصرف، وبلاغة، واسلوب، فضلاً على ماقدمه في العلوم الأصولية والمنطقية وعلوم الإنسان والحيوان والنبات،[٤] وكان احد شيوخ المعتزلة فانتسب إليه بعضهم ، وهم : الجاحظية.،[٥]

ترك الجاحظ كثيراً من التصانيف، منها: كتاب الحيوان، والبيان والتبيين، الزرع والنخل، والبخلاء، والنبي والمتنبئ، ونظم القرآن ، ومسائل القرآن، وفضيلة المعتزلة، والإمامة، والرد على النصارى، واللصوص، والأصنام، وتصويب عليٍّ في تحكيم الحكمين، والعرجان والبرصان، وفخر القحطانية والعدنانية، وأخلاق الملوك، والنساء، والحاسد والمحسود، والملوك والأمم السالفة والباقية، وأخلاق الشطار ، وغيرها . ،[٦]

توفي الجاحظ في شهر المحرم سنة خمس وخمسين ومئتين من الهجرة في البصرة ، وقد جاوز التسعين من عمره .[٧]

كتاب الحيوان

يعد كتاب الحيوان من أضخم وأشهر كتب الجاحظ ، أثنى عليه جمع من العلماء منهم عبد القاهر الجرجاني(ت٤٧١هـ أو ٤٧٤هـ) ، الذي أشار إلى ما انمازت به مقدمات كتب الجاحظ ولاسيما مقدمة كتاب الحيوان، إذ تجنب الجاحظ كل تجنيس وصنعة ولم يحتفِ بها وإنما آثر الربط الفكري . ،[٨]

أمَّا بروكلمان فيرى أنَّ استغراق الجاحظ في قراءة الكتب لم يبعده عن حاسته وملكته الفطرية في دراسة الطبيعة والأحياء، فهو لم يكتفِ على ما كان يستقيه من الكتب فحسب، وإنما كان يقوم بتجارب عملية على الحيوان ، فمن

الملاحظ التي اهتدى إليها الجاحظ معتمداً على تجربته الخاصة، ملاحظته للنمل ، إذ تأخذ من الحب الذي يدخره للشتاء جزء للإنبات والتناسل لئلا يفسد ويتعفن، وقد أشار المستشرق براون إلى صحة هذه الحقيقة . ،[٩]

وكانت العامة تزعم أنَّ الأفاعي تكره ريح السذاب والشيح وتستريح إلى نبات الحرمل، فقام الجاحظ برمي السذاب على رأس الأفاعي وانفها ولم يحدث ما ذكروه وإنما كان كسائر البقل، فأثبت الجاحظ بالتجربة العملية خطأ ما أشار إليه العامة . [١٠]

أمّا الأسباب التي دفعت الجاحظ الى تأليف كتاب الحيوان ، فمنها البرهنة على قدرة الله وحكمته بما أودعه في الحيوان من عجائب وأسرا، وحاول الجاحظ أن يبرز وحدة الكون، وتناغمه وانسجامه، عن طريق وصفه لطباع الحيوان وبيان أنواعها وخصائصها، وتحول الحيوان إلى رمز اجتماعي وديني عندما اشتدت الصراعات والخلافات الفكرية والعقلية في العراق بين العرب والفرس ، فأصبح الديك رمزاً لحياة الفرس الاجتماعية، والكلب وهو الخادم الوفي رمزاً للإنسان العربي، وفضلاً على ذلك وفرت الكتب العربية التي تبحث في الحيوان، هيأة للجاحظ مكتبة ضخمة جداً انتجت لنا كتاب الحيوان وهو من أضخم الكتب العربية التي عنيت بالحيوان بشكل مفصل، ولا يمكن نسيان رغبة الجاحظ في تمحيص بعض أقوال أرسطو من التجربة العملية أو الملاحظ العقلية مع المقارنة بين أقوال أرسطو من جهة وما جاء في الشعر العربي من جهة أخرى، وكذلك أنَّ ما قدمه الجاحظ لم يخلُ من أسباب ذاتية، كحبه للشهرة والاعتزاز بنفسه والرد على من ينتقده أو يلومه، بأسلوب انماز به الجاحظ عن غيره من أدباء عصره . [١١]

أصوات الحيوان عند الجاحظ

عني الجاحظ بالدرس الصوتي والنطقي عناية نلمح بلحاظها في أغلب مصنفاته، ولا يخفى على القارئ ما قدمه الجاحظ من إشارات صوتية كان لها الأثر العميق في الدرس الصوتي القديم والحديث ،[١٢] فاللغة المنطوقة ماهي إلَّا عبارة عن تجمعات صوتية تنسج في قوالب لغوية ،[١٣] ومثلما كان للانسان لغة منطوقة يستعين بها للتفاهم، فللحيوان لغة أيضاً يختص بها عن الإنسان ويستعينون بها للتفاهم فيَ ما بينهم .

ذكر الجاحظ أنَّ الإنسان يطلق عليه بالفصيح والناطق ،[١٤] و((**وقد يشتقُّون لسائر الحيوان الذي يُصَوِّتُ ويصيح، اسم الناطق إذا قرنوه في الذكر إلى الصامت، ولهذا الفرق أعطوه هذه المشاكلةَ، وهذا الاشتقاق فإذا تهيأ من لسانِ بعضها من الحروف مقدارٌ يَفضُلُ به عَلَى مقادير الأصناف الباقيةِ، كان أولى بهذا الاسمِ عندهم**)) . [١٥]

والفصيح هو ما يفهم كلامه ولهذا قيل عن الكلام الفصيح هو العربي ؛ لأنه مفهوم وبيين فالفصاحة هي البيان والوضوح وفهم ما يقال ولهذا قيل عن الأعجمي إذا تكلم بالعربية وفُهِمَ عنه ما يقول : فَصُحَ الأعجمي ،[١٦] والنطق كلام يسمع له صوت يعبر عن معنى؛ ولهذا قيل عن الحيوان ناطق؛ لأن ما يسمع منه من صوت لا يكون اعتباطيٌ وإنما يكون له معنى يفهمه الحيوان، ولهذا سميت أصوات الطير منطقاً؛ لأن الله سبحانه وتعالى فَهَّمَ سيدنا سليمان (عليه السلام) عن المعاني التي تحملها أصوات الطيور، والصامت كالذهب والفضة والجوهر، أي كل ما لا يسمع له صوت . [١٧] فالحيوان يفترق عن الجماد في أنَّه يصوت ويصيح والصوت الذي يطلقه لابد أنْ يكون دالاً على معنى وإنْ لم يفهمه الإنسان، وفضلاً على ذلك فقد يتوافر للحيوان أصوات معينة تكون أكثر وضوحاً في السمع من غيرها من الأصوات التي لا يكون قادراً على نطقها؛ ولهذا قد يتهيأ للحيوان أصوات معينة ينطق بها ، من ذلك ما ذكره الجاحظ ، قال : ((**والذي تهيأ للشاةِ قولها: ما**)) [١٨]، و((**وقد تهيأ للكلب مثلُ: عَفْ عَفْ، ووْوْ وْوْ، وأشباه ذلك . وتهيَّأ للغراب القاف، وقد تهيَّأ للهزارِدَسْتان – وهو العندليب – ألوانٌ أُخر، وقد تهيَّأ للببغاء من الحروف أكثر**))[١٩].

أما السنانير فيقف عندها الجاحظ معبراً عن دهشته لما تهيأ لهذه الطيور من أصوات لو تمعن الإنسان فيها لكانت صالحة لأن تكون لغة ولاسيما ما يسمع في الليل من خطابها وتجاوبها مع بعضها، قال : ((**فإذا صرْتَ إلى**

السنانيرِ وجدتها قد تهيَّأ لها من الحروفِ العددُ الكثير، ومتى أحبَبْتَ أن تعرِفَ ذلك فتسمَّعْ تجاوُبَ السنانيرِ، وتوعُّدَ بعضها لبعض في جوف الليل، ثم احصِ ما تسمعه وتتبَّغه، وتَوَقَّفْ عنده، فإنك ترى من عدد الحروف ما لو كان لها من الحاجات والعقولِ والاستطاعات؛ ثمّ ألْفَتْهَا لكانت لغة صالحة الموضع، متوسِّطة الحال)) [٢٠].

ولهذا يلحظ أنَّ العرب كانت تطلق على الحيوان اسماً يحاكي ما يسمع منه من أصوات، إذ يرى الجاحظ أنَّ العرب يميلون إلى التوسع في استعمال طرائق مختلفة في كلامهم من اجل ان يفهم الناس بعضهم بعضا، وأي شيء يستعين به الناس في التفاهم هو بيان ،[٢١] والبيان عند الجاحظ هو اسم جامع لكل شيء يكشف قناع المعنى، ويهتك الحجاب من دون الضمير، حتى يصل السامع إلى حقيقة الشيء ، مهما كان ذلك البيان ، ومن أي جنس دليله؛ لأن الغاية التي يرمي إليها القائل والسامع ، هي الفهم والإفهام ، فبأي شيء بلغ المتكلم الإفهام وأوضح المعنى، فذلك هو البيان . [٢٢]

ومن الطرائق التي استعان بها العرب في الوصول إلى البيان محاكاة ما يسمعون من أصوات فأطلقوا على كل حيوان اسماً جاء محاكاة للأصوات التي تهيأت للحيوان، قال الجاحظ : ((والصبيان هم الذين يسمون الشاة: ماه، كأنهم سموْها بالذي سمعوه منها، حينَ جهلوا اسمها)) [٢٣] .

فالعربي إذا جهل اسم المسمى لجأ إلى تقليد صوته من أجل الإبانة عنه من ذلك ما أشار إليه الجاحظ في قوله ((وقيل لصبي يلعب على بابهم: مَنْ أبوكَ يا غُلام؟ ــ وكان اسم أبيه كلبّاً – فقال: وَوْ وَوْ)) [٢٤] ، فقد حاكى الصبي صوت الكلب بدلاً عن ذكر اسم أبيه .

وكان لأصوات الحيوان أهمية بالغة حيث عمد إليها بعض العلماء بالدراسة والبحث حتى أنَّهم فسروا عن طريقها نشأة اللغة، من ذلك ابن جني (ت٣٩٢هـ) الذي حاول أن يفسر نشأة اللغة بالاعتماد على نظرية (المحاكاة الصوتية) ، وهي نظرية بنيت على أساس وجود مناسبة طبيعية بين الدال والمدلول أي بين اللفظ ومعناه، فأصل اللغات في نظر ابن جني جاءت محاكاة للأصوات المسموعة من الطبيعة ولاسيما أصوات الحيوان مثل : شَحِيح الحمار، ونَعِيْق الغراب، وصَهِيْل الفرس ، وغيرها . [٢٥]

وقد سبق ابن جني في الإشارة إلى وجود مناسبة طبيعية بين اللفظ ومعناه الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ) ، إذ ذكر أنَّ العرب دلوا على صوت الجندب بـ(صَرَّ) ؛ وعللوا ذلك بأن صوت الجندب فيه امتداد واستطالة ، اما البازي فدلوا على صوته بالفعل (صرصر) ؛ لأن في صوته تقطيعاً وعدم استمرار . [٢٦]

ولكن بعض العلماء لم يؤيد هذه النظرية وعللوا ذلك بأسباب عدَّة منها ؛ لو كانت هذه النظرية صحيحة ، لتمكن كل إنسان أن يفهم كل اللغات أو في الأقل أن تكون الألفاظ المحاكية لأصوات الطبيعة مشتركة بين لغات العالم مثل : الشقّ، والدَّقّ، والقَطع، والصَّهِيل، والعُواء، والمُواء، و غيرها . [٢٧]

واختلاف العلماء في نظرية (المحاكاة الصوتية) لم يمنعهم من الاعتراف بوجود لغة خاصة تصدر عن الحيوان على شكل أصوات غريزية تعبر عن حالات ومواقف مختلفة مثل الانسان ، ولهذا حاول الإنسان ان يستمع إلى هذه الأصوات ويحاكيها قدر الإمكان متحرياً المخارج التي خرجت منها . [٢٨]

فقد مَنَّ الله سبحانه وتعالى على سائر الحيوان بأصوات مختلفة يستعين بها للتعبير عما يعتريه من حالات الفرح والحزن والخوف وغيرها، من ذلك الكلب، قال الجاحظ : ((له ضروبٌ من النَّغَم، وأشكال من الأصوات، وله نوح وتطريب،

ودُعاء وخُوار، وهَرِير وعُواء، وبَصبصة، وشيءٌ يصنَعه عند الفرح، وله صوتٌ شبيهٌ بالأنينِ إذا كان يَغْشَى الصيد، وله إذا لاعَبَ أشكاله في غُدُوات الصَّيفِ شيءٌ بينَ العُواء والأنين)) [٢٩].

فللكلب أصوات وأنغام مختلفة تختلف على حسب ما يعتريه من حالات فهو ينماز بأصوات معينة في فرحه تختلف عما يُسمع منه في حزنه، ويختلف صوته إذا أراد أن ينادي شخصاً ويجذبه إليه ،[٣٠] عما إذا صاح فيشتد صوته ويكون كصوت الثور أو البقرة ،[٣١] واما الهرير والعواء فكلاهما أن يمد الكلب صوته ولكن من دون أن ينبح ، ففي الهرير يعبر بصوته عن جزعه وقلة صبره على البرد ، أمَّا في العواء فغالباً لا يفصح . [٣٢]

وذكر اللغويون بصبص الكلب إذا حرك ذنبه في حالة الخوف أو الطمع في شيء معين،[٣٣] أي أن البصبصة حركة وليست صوتاً وربما جمعها الجاحظ مع الأصوات المعبرة عن حالات معينة يختص بها الكلب ؛ لأنها إحدى الطرائق التي يستعين بها الكلب للتعبير عما يعتريه من خوف أو رغبة في شيء معين، فهي وسيلة تعبير يستعين بها الكلب وقت الحاجة مثل الأصوات .

وفضلاً على ذلك فللكلب أصوات وحركات يعبر بها عن فرحه ، وفي حالة الخوف من الصيد يصدر صوتاً يشبه الوجع ،[٣٤] وفي اللحظات التي يلاعب بها الكلب أقرانه نسمع صوتاً فيه مدّ مع شيء من أنين المتوجع . [٣٥] والهرَّة لا تختلف عن الكلب فهي تصدر أصواتاً مختلفة ولكل صوت معنى ودلالة يختلف بها عن الصوت الآخر، قال الجاحظ : ((ولها ضروبٌ من النَّغَم، وأشكالٌ من الصِّياح ــ فتصيح ضرباً من الصِّياح يعرفُ أهلُ الدَّارِ أنّه صياحُ الدُّعاء لا غير ذلك)) [٣٦] .

فصاحب الهرة يستطيع أن يميز صوتها إذا استدعته من صوتها في حالات أُخر ، كصوت الهرة إذا أرادت أن تستدعي الهر، إذ يختلف صوتها تماماً عن حالة استدعائها لولدها، قال الجاحظ : ((ودُعاء الهِرَّةِ الهرَّ خلافُ دعائها لولدها))[٣٧]، فللهرة أصوات مختلفة ولكل حالة صوت مختلف تستعين به للتعبير عن الحالة الأخرى فلها لغة خاصة في التفاهم سواء أكان مع نظيرها من الحيوان أم مع الانسان.

أمَّا الفرس فإنَّ صوته إذا رأى المخلاة وهو الكيس الذي يوضع فيه الحشيش ،[٣٨] يختلف عن صوته إذا رأى الحجر؛ لأنه في الحالة الأولى يطلب العلف وقيل أنَّ صوته يكون منخفضاً كأنَّه يطلب الطعام بشيء من التوسل ،[٣٩] قال الجاحظ((وحَمْحَمَةُ الفرَس عند رؤية المخلاة، على خلاف ما يدلُّ عليه حَمحمتُه عند رؤية الحِجْر)) .[٤٠]

وفضلاً على ذلك فقد كان الجاحظ ما بين الحين والآخر يقف عند أصوات الحيوان، من ذلك : **الفَحِيْح والكَشِيْش** : قال الجاحظ : ((الفَحِيْحُ: صَوت الحية من جَوْفها، والكَشِيْشُ والقَشِيْش: صَوت جِلْدها إذا حكَّت بَعضَها ببعض)) [٤١].

فَحِيْح الحية هو نفخها من فيها مع تحريك الحنكين وإخراج اللسان ،[٤٢] ونقل أصحاب المعجمات ما ذهب إليه بعض العرب في أن فحيح الأفاعي هو أن تحك جلدها بعضه ببعض ، فهي خشناء الجلد . [٤٣]

ولكن يرى أغلب اللغويين أن الفَحِيْح هو صوت الأفعى من فيها، أما صوت جلدها فهو الكَشِيْش وليس الفَحِيْح . [٤٤] فالكشيش هو ما يسمع من صوت عند احتكاك جلد الحية بعضه ببعض كصوت جرش الرحى ،[٤٥] وقيل أن بعض العرب أطلقت على صوت الأفعى الذي يسمع من فيها بالكشيش،[٤٦] إلا أنَّ ابن دريد (ت٣٢١هـ) خطأ من زعم ذلك ؛ لأن ذلك هو الفحيح وليس الكشيش . [٤٧]

واتفق مع ابن دريد في أنَّ الفحيح هو صوت الأفعى من فيها ؛ فالعرب يطلقون على من كان صوته ابح بالفَحْفاح ،[٤٨] ولما كان الفَحِيْح هو نفخ الأفعى من فيها فقد شبهوا الرجل الذي ينفخ في نومه بالأفعى وقالوا : فَح الرجل في نومه إذا نفخ ،[٤٩] وفضلاً على ذلك فجلد الحية خشن وعندما يحتك بعضه ببعض يكون صوته كجرش الرحى ، أمَّا

الصوت الذي يخرج من فيها فهو عبارة عن نفخ مع اخراج لسانها وتحريك حنكيها ، وصوتا الفاء والحاء من الأصوات الرخوة المهموسة ،[٥٠] والهمس والرخاوة من صفات الأصوات الضعيفة ،[٥١] وعليه فهي تتفق مع صوت الحية الذي يخرج من فيها فهو مجرد نفخ، أمَّا الكاف فهو صوت شديد مهموس والشين صوت رخو مهموس ،[٥٢] والشدة الموجودة في صوت الكاف منحته قوة لم يمتلكها صوتا الفاء والحاء،[٥٣] وعليه يكون الكشيش أقرب إلى تجسيد صوت احتكاك جلد الحية فهو صوت قوي .

اما القَشِيْش فلم يذكره إلَّا الصاحب بن عباد (ت٣٨٥هـ) ، إذ بين أنَّه صوت جلد الحية إذا احتك بعضه ببعض ،[٥٤] ويبدو لي أن القاف في القَشِيْش ما هي إلا إبدال من الكاف ، فالقاف والكاف متقاربان في المخرج كثيراً ، فسيبويه(ت١٨٠هـ) وصف مخرج القاف على أنَّه من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى اما الكاف فهو أسفل من موضع القاف من اللسان قليلاً ومما يليه من الحنك الأعلى ،[٥٥] وفضلاً على ذلك أشار كثير من العلماء إلى ما يصيب هذين الصوتين من إبدال في اللغة العربية ولاسيما ابن جني وابن سيده (ت٤٥٨هـ) وعزا هذا الإبدال إلى تقارب المخارج بين هذين الصوتين . [٥٦]

القَطَا :

قال الجاحظ : ((فلما تهيأ للقَطاةِ ثلاثة أحرف قاف، وطاء، وألف، وكان ذلك هو صوتها، سمَّوها بصوتها، ثم زعموا أنها صادقةٌ في تسميتها نفسها قَطا، قال الكُمِيت:

كالنَّاطِقاتِ الصَادِقَا ... تِ الوَاسِقاتِ مِنَ الذَّخائرْ

وقال الآخر وذَكرَ القطاة:

وَصَادِقَةٌ قَدْ خَبَرَتْ، ما بَعَثْتُهَا ... طُرُوقاً، وَبَاقِي اللَّيْلِ في الأرضِ مُسْدِفُ

فجعلها مُخْبِرة، وجعل خبرها صدقًا، حين زعمتْ أنها قطًا؛ وإن كانت القطاة لم تَرُمْ ذلك)) [٥٧] .

ذكر الجاحظ أنَّ العرب سمعت من القطا ثلاثة أصوات هي القاف والطاء والألف فسموها قطا محاكاة لما سمع منها، وزعم الشعراء بأنها صادقة بتسمية نفسها بالقطا ، فكأنما القطا سمت نفسها بهذا الاسم الذي عبرت عنه بصدق . والقطا طائر معروف اختلف اللغويون في سبب تسميته فبعض العلماء ينسب هذه التسمية إلى الصوت الذي سمع من القطا ،[٥٨] واستدلوا على ذلك بالأبيات التي ذكرها الشعراء كقول النابغة:[٥٩]

تَدْعُو القَطَا، وَبِهَا تُدعَى، إذا نُسِبَتْ ... يا حُسْنَهَا. حِينَ تَدْعُوها. فَتُنْتَسَبُ

وفضلاً على ذلك ما ذكره الجاحظ من أبيات دلت على صدق القطا في تسميت نفسها بهذا الإسم.

يرى بعض العلماء أنَّ القطا سميت بهذا الاسم وصفاً لمشيتها ، فالقطا تتصف بأنَّ رجليها قصيرتان فتكون خطواتها متقاربة ومشيتها ثقيلة ولكنها مع ذلك تكون نشيطة في حركتها، وقالوا : إنَّها سميت بالقطا؛ لأنَّها تقطو في مشيتها، وكذلك اطلقوا على مشيتها بالاقطيطاء ،[٦٠] ويبدو من وصف العلماء أنَّ مشية القطا تشبه القفز فهي غير قادرة على أن تخطو خطوات طويلة لقصر أرجلها وفي الوقت نفسه هي تميل إلى الحركة السريعة لما يعتريها من نشاط . وصوت القاف والطاء من أصوات القلقلة ، والقلقلة في اللغة هي الحركة والاضطراب وقلة الثبوت في المكان ،[٦١] أمَّا في الاصطلاح فالقلقلة عبارة عن صوت يشبه الحركة يسمع عند الوقف على أصوات (قطب جد) . [٦٢]

واشترط العلماء لحدوث ظاهرة القلقلة اجتماع الشدة والجهر في الصوت ، فالجهر يمنع النفس أن يجري عند انفتاح المخرج ، والشدة تحصر صوت الحرف فتمنع جريان الصوت لشدة الضغط في المخرج، فيلتصق المخرج التصاقاً محكماً، ولذلك يلجأ المتكلم إلى الضغط عند النطق بها ساكنة ، فيظهر لنا صوت يشبه الحركة . (٦٣)

وقد وصف القدماء صوتي القاف والطاء بالشدة والجهر ،(٦٤) وذكر الدكتور غانم قدوري الحمد أنَّ صوتي القاف والطاء من الأصوات المهموسة عند المحدثين وعليه ينتفي أحد شرطي القلقلة ، وهو الجهر، ولكن ما يلحظ أنَّ قُرَّاءَ القرآن والناطقين باللغة العربية يحرصون على اتباع هذين الصوتين عند الوقف بصويت القلقلة، ويرى أنَّ ما سوغ ذلك أنَّ صوتي القاف والطاء من الأصوات الشديدة الانفجارية، فيتبعها عند الوقف عليها صوت يشبه الحركة، ولعل ذلك يعود إلى ما يعتري صوت الطاء من فخامة؛ لأنَّها من أصوات الإطباق، وشدة انفصال العضوين مع صوت القاف، على الرغم من كونه صوتاً مستعلياً . (٦٥)

ومما سلف ذكره يلحظ وجود شبه كبير بين ما تتصف به مشية القطا وما تتصف به صفات أصواتها ، فالقلقلة هي إعاقة لخروج الصوت فيلجأ المتكلم إلى الضغط في مخرج الصوت، والقطا لقصر أرجلها الذي سبب لها الثقل في مشيتها تلجأ إلى القفز إذا أرادت أن تتحرك بسرعة، ولعل هذا السبب ما جعل الشعراء يقولون بأن القطا صادقة في تسميت نفسها بالقطا ، وكذلك ما جعل اللغويين غير قادرين على تحديد معنى مصطلح القطا ، فمرة يطلق على مشيتها ومرة أخرى على صوتها وفي الحالتين صحيح .

نَغِيق وشَحِيج :

قال الجاحظ : ((**ويقال نَغَقَ الغراب يَنْغِقُ نَغِيْقاً، بغين معجمة؛ ونَعَبَ يَنْعَبُ نَعِيْبَاً بعين غير معجمة. فإذا مرَّت عليه السَّنونَ الكثيرة وغلُظ صَوتُه قيل شَحَجَ يَشْحَجُ شَحِيْجاً**)) (٦٦).

ذكر الخليل نَغَقَ الغراب يَنْغقُ نَغيقاً ، أي أنَّه صاح : غيق غيق ،(٦٧) فالصوت الذي سمع من الغراب يجتمع فيه أصوات الغين والياء والقاف ، وعندما أراد العرب أن يسموا صوت الغراب استعانوا بصوت الغين والقاف واهملوا صوت الياء ثم زادوا عليه صوت النون فاصبح نغق اسماً يطلق على صوت الغراب ، ولعل الذي دفعهم إلى اختيار صوت النون من دون غيرها من الأصوات، يعود إلى أن هذا الصوت يمتلك خاصية الإيحاء بالصوت بسبب ما يمتلكه هذا الصوت من الرنين الناتج من خاصية الاهتزاز ،(٦٨) فالغنة التي يمتلكها صوت النون أعطت للصوت إطالة فضلاً على ما يمتلكه الصوت من تردد موسيقي تميل إليه النفس . (٦٩)

وفضلاً على ذلك فهناك توافق صوتي بين النون والغين والقاف ، فالنون صوت مجهور متوسط بن الشدة والرخاوة،(٧٠) وبهذا يتفق مع صوت الغين وهو صوت رخو مجهور،(٧١) أمَّا صوت القاف فقد وصفه القدماء بأنه صوت مجهور شديد ووصفه المحدثون بأنه صوت مهموس،(٧٢) وأرى أنَّ ما قدمه القدماء هو الأنسب لوصف صوت القاف فالجهر يتفق مع طبيعة المناطق التي أُخذت منها اللغة وهي مناطق متوغلة في الصحراء يميل الناطقون في تلك المناطق إلى الجهر بالأصوات ، أمَّا القاف المهموسة فيمكن عدها لهجة تطورت بفعل الفارق الزمني ،(٧٣) وعليه فالنون والغين والقاف جميعها تشترك بصفة الجهر .

أمَّا نَعَبَ فذكر ابن فارس (ت٣٩٥هـ) أنَّ لها أصلين ، الأول يدل على الصوت ، وهو صوت الغراب الذي ذكره الجاحظ، والآخر يدل على الحركة ،(٧٤) ودلالة نَعَبَ على الصوت أكد عليه اللغويون من السابقين واللاحقين لابن فارس(٧٥)

واشار اللغويون إلى وجود اختلاف دلالي بين نَغَقَ ونَعَبَ ، فعلى الرغم من اشتراكهما بالدلالة على صوت الغراب إلّا أنَّهم يطلقون نَعَبَ على صوت الغراب إذا رافق سماعهم للصوت حصول حدث مشؤم، فيقولون نعب الغراب ببين أو بشر، أمَّا نغق فيطلقون هذا الاسم على صوت الغراب في حالة التفاؤل، في قولهم : نغق الغراب بخير . (٧٦)

ومما يجدر الإشارة إليه أنَّ نَعَبَ اسم اطلق على صوت الغراب عند سماع العرب لصياح الغراب بـ(غاق غاق)،(٧٧) وما يلحظ أنَّه لا توجد أي محاكاة بين الصوت الذي سمع من الغراب والاسم الذي أطلقه العرب عليه، فالسؤال الذي يطرح نفسه من أين جاءت كلمة نعب؟ ولماذا اختار العرب هذه الحروف من دون غيرها؟

يبدو لي ان كلمة نعب استوحاها العرب من كلمة نحب والتي تدل على النَّذْر والخطر العظيم ورفع الصوت بالبكاء،(٧٨)وفضلاً على ذلك فقد اجتمعت نحب ونعب في الدلالة على الحركة، ذكر ابن فارس، ناقة نَعّابة : هي الناقة السريعة، التي تحرك رأسها إلى قدامها في أثناء مشيها.(٧٩)

واشار الصاحب بن عباد إلى أن النحب : هو السير الشديد ،(٨٠) وورد عن ابن منظور (ت٧١١هـ) أنَّ النَّحْبَ والنَّعْبَ يجتمعان في الدلالة على السير السريع ،(٨١) وكلام ابن منظور دليل على وجود ترادف في الدلالة بين نحب ونعب ومن الناحية الصوتية فصوت الغين والعين والحاء من أصوات الحلق ، فالغين مخرجها من أدنى الحلق والعين مخرجها من وسط الحلق ، أمَّا الحاء فتشترك مع العين في المخرج ولا يفترقان إلّا في الصفة ؛ لأن العين صوت مجهور والحاء صوت مهموس . (٨٢)

وأرى أنَ العرب عندما حاولوا أن يعبروا عن صوت الغراب في حالة حدوث حدث مشؤم انتخبوا كلمة نحب وكأنما الغراب يبكي على ما رأى من حدث حزين ، ومن أجل أن يقربوا هذه الكلمة من نغق مالوا إلى ابدال الحاء بصوت العين ، فالعين نظير الحاء من جهة وقريب على صوت الغين من جهة أُخرى فيقتربون بذلك من كلمة نغق .

أمَّا شَحَجَ فقد أجمع اللغويون على أنَّ هذه الكلمة تدل على الصوت ،(٨٣) وتطلق على صوت الغراب إذا تقدم في السن وغلظ صوته ،(٨٤) وقيل أيضا أنَّه ترجيع الغراب لصوته ،(٨٥) وتستعمل شحج للدلالة على صوت البغل وبعض اصوات الحمار إذا تقدما في السن وربما استعير للدلالة على صوت الانسان . (٨٦)

وأرى أنَّ استعمال العرب لكلمة شحج في الدلالة على صوت الغراب والبغل وبعض الأصوات التي تسمع من الحمار وفضلاً على ذلك استعارتها للدلالة على صوت الإنسان إذا كبر في السن ، يدل على أنَّ هذا الصوت لا يمكن أن يكون محاكاة مباشرة للصوت الذي سمع من الغراب ، ولعل استعمال العرب لشحج يعود لما تتصف به أصوات الكلمة من الدلالة على الضعف ، فالشين صوت رخو مهموس ،(٨٧) والحاء من الأصوات الرخوة والمهموسة أيضا ،(٨٨) وصفة الهمس والرخاوة عدها اللغويون من صفات الأصوات الضعيفة ،(٨٩) والجيم صوت مجهور شديد عند القدماء وقليل الشدة عند المحدثين . (٩٠)

وإذا نظرنا إلى مخارج هذه الأصوات سوف نلحظ أنَّ صوت الشين يتكون مخرجه عندما تلتقي مقدمة اللسان وجزء من وسطه بوسط الحنك الأعلى فيكون اللسان كله مرتفعاً نحو الحنك الأعلى ولكن لا يلتقي العضوان بشكل كامل وإنَّما لا بد أن يبقى فراغ بينهما، مع اقتراب الأسنان العليا من السفلى ، وأنَّ الطبق يرتفع ويسد المجرى الأنفي ليمر الهواء من الفم،(٩١) وعندما ينتقل المتكلم إلى صوت الحاء تبدأ مؤخرة اللسان بالاقتراب من الجدار الخلفي للحلق بحيث يمر الهواء ويحدث احتكاكاً في موضع التضييق مع ارتفاع الطبق ليسد المجرى الأنفي فيمر الهواء من الفم،(٩٢) والمتكلم سواء أكان

مع صوت الشبن أم مع صوت الحاء، لا يتذبذب لديه الوتران الصوتيان ،[٩٣] وعندما ينتقل المتكلم إلى النطق بصوت الجيم يلتقي وسط اللسان بوسط الحنك الأعلى فيكون الالتقاء بين العضوين متقارباً جداً بحيث ينحبس مجرى الهواء ، وعند انفصال العضوين يكون الانفصال بطيء فيسمع صوت يكاد يكون انفجارياً؛ لأنَّ انفصال العضوين أبطأ من الانفصال الذي يحدث في حالة الأصوات الشديدة ؛ ولهذا أطلق عليه المحدثون بأنه صوت قليل الشدة ،[٩٤] بينما يرى القدماء صوت الجيم من الأصوات الشديدة ،[٩٥] ويرافق عملية النطق بصوت الجيم اهتزازاً ملحوظاً بالاوتار الصوتية . [٩٦]

فعملية النطق بكلمة شحج لا تحتاج إلى جهد كبير؛ لأن اللسان يبدأ بالارتفاع من المقدمة والوسط مع صوت الشين ثم تبدأ مؤخرة اللسان بالارتفاع مع صوت الحاء وبعدها يحدث التقاء لوسط اللسان مع وسط الحنك الأعلى عند النطق بصوت الجيم ، فعملية النطق تدرجت من المنخفض إلى المرتفع وفضلاً على ذلك فالأوتار الصوتية لم تهتز مع الشين والحاء وإنَّما اهتزت مع الجيم، فالإنسان في نطقه لمثل هذه الكلمة التي لاتحتاج إلى جهد كبير غالباً ما يستعملها عندما يكون كبيراً في السن فهو غير قادرٍ على استعمال كلمات تتصف أصواتها بالقوة؛ لأنَّ الجهاز النطقي لا يساعده على استعمال مثل هذه الأصوات؛ ولهذا مال العرب إلى هذه الكلمة للتعبير عن أصوات الحيوان إذا كبر في السن وكذلك الانسان .

هَدِيل وهَدِير :

قال الجاحظ في صوت الحمام : ((**ويكون هَدِيلُ الحمام الفتيِّ ضئيلاً ، فإذا زقَّ مِزَاراً فَتَحَ الزَّقُّ جِلْدَةَ غَبَبه وحوصلته، فخرَجَ الصَّوتُ أغلَظَ وأجهَرَ**)) [٩٧] ، و((**ويقال في الحمام الوحشي من القماريِّ والفواخت والدَّباسي وما أشبه ذلك: قد هَدَلَ يَهْدِل هَدِيلاً ... وأمَّا أصحابنا فيقولون: إنّ الجمل يَهْدِر، ولايكون باللام، والحمام يَهْدِلُ وربَّما كان بالراء.ويعضهم يزعُم أنّ الهَدِيلَ من أسماء الحمام الذَّكر**)) [٩٨].

ذكر الخليل أنَّ كلمة هَدِيل تدل على الاسترخاء وتدل على فرخ الحمام ،[٩٩] واتفق ابن فارس مع الخليل في دلالة هَدِيل على الاسترخاء في الشيء، ولكنه خالفه في دلالتها على فرخ الحمام ، إذ يرى أنَّ الهديل هو صوت الحمام، و أطلق العرب عليه هذا الاسم محاكاة لصوته ،[١٠٠] وفضلاً على ذلك فقد ذكر أصحاب المعجمات أنَّ الهديل هو ذكر الحمام وخص بعض العرب من الحمام وحشيها كالدَّباسي والقماري ونحوهما . [١٠١]

وذكر صاحب التاج أنَّ العرب لم تتفق على دلالة محددة فمرة يجعلون هَدِيْل اسماً للطائر نفسه ومرة أُخرى يطلقونه على صوت الحمام . [١٠٢]

ويبدو لي أنَّ الجاحظ كان أدق واوضح في تحديد دلالة كلمة الهديل فهي صوت فرخ الحمام الذي يحاول أنْ يخرج صوته بشيء من الغلاظة والجهر فيلجأ إلى زقه أكثر من مرة حتى يفتح الزق جلدة غببه وحوصلته ، ولما سمع العرب صوت فرخ الحمام اطلقوا اسم صوت الحمام على فرخه محاكاة لصوته، ولعل صوت الهاء يجسد لنا حكاية فرخ الحمام الذي يحاول أن يجعل صوته أجهر وأغلظ ، فصوت الهاء من الاصوات المهموسة والرخوة ولكنه يتأثر بما يجاوره من الاصوات فقد يجهر إذا جاور صوتاً مجهوراً كصوت الدال كما في هَدِيْل ،[١٠٣] وصوت الدال صوت مجهور شديد،[١٠٤] وبسبب مجاورته للهاء حول صوت الهاء من صوت مهموس إلى صوت مجهور ، وهذا ما حاول أن يصل إليه فرخ الحمام عندما زُقَّ مراراً حتى يصل إلى صوت الهديل .

وفضلا على ذلك فصوت الياء من الاصوات المجهورة ،[١٠٥] وكذلك صوت اللام فهو صوت مجهور ،[١٠٦] وعليه فقد اجتمع مع صوت الهاء المهموس ثلاثة أصوات مجهورة أثرت فيه وحولته من حالة الهمس إلى حالة الجهر وهذا ما حاول أن يقوم به فرخ الحمام .